هوامش

في الثاني من فبراير/ شباط الماضي، احتفى محرك البحث، غوغل، بذكرى مرور 127 عاماً على مولد أول طبيبة تركية. أثار الأمر انتباه الدولة التركية، ليُبحَث أكثر عن تاريخ هذه المرأة

رحلت عام 1952 ودُفنت في ألمانيا (أرشيف)

صفية علي
البحث عن أول طبيبة تركية

عدنان عبد الرزاق

لم يسمع كثير من الأتراك باسم الطبيبة صفية علي، قبل أن يحتفي محرك البحث، غوغل، في الثاني من فبراير/ شباط الفائت، بذكرى ميلادها، فنشر صورة خاصة على الصفحة الرئيسية لمحرك البحث، ووضع على شعاره المعروف باسم «دودل». صورة ترمز إلى الذكرى الـ 127 لمولد أول طبيبة تركية.

منذ ذلك الحين، أُعيد إحياء الطبيبة ومسيرة حياتها، على الصعيدين، الشعبي والرسمي. وبدأت تركيا بالبحث عن موقع قبر الطبيبة التي رحلت في ألمانيا، بعد صراع مع مرض السرطان، لتعيد بناءه وفق ما يليق برائدة الطب.

بحسب وسائل الإعلام التركية، فإن علي أول طبيبة في تركيا، وُلدت عام 1894، وحصلت على إجازة الطب، ومن ثم الدبلوم عام 1921، أي قبل تأسيس الجمهورية بسنتين. وأصبحت بعد عودتها إلى تركيا، أول معلمة للتدريس في كلية الطب، مع بدايات نشوء جمهورية مصطفى كمال أتاتورك في حزيران 1923، ليسلّط الضوء على أول عضو أنثى في هيئة التدريس، تعلّم مادة أمراض النساء والتوليد في أول كلية طب للبنات افتُتِحَت داخل الكلية الأميركية في إسطنبول.

تقول الطبيبة التركية هديل هاصة، في حديث إلى «العربي الجديد»: «بحكم دراستنا، كنا نعرف المعلمة الأولى صفية، لكن الوسط التركي العام، قلّما سمع بها»، مشيرة إلى أن علي سرقها الموت باكراً، وهي في سنّ الـ 58 سنة، في عام 1952.

وتضيف هاصة أن «لأول طبيبة تركية تاريخاً نضالياً، عبر دراستها الطب في جامعة فورزبورغ الألمانية، المهنة التي أحبتها، إذ لم يثنها عدم القبول في تركيا عن حلمها، وإن كان لأسرتها دور».

تتابع: «كذلك ساهمت خلال تعليمها في الجامعة وعبر حملات كثيرة، في التوعية وتحصيل حقوق المرأة، لأن المجتمع التركي وقتذاك، والخارج لتوه من حكم الدولة العثمانية، قلما كان يتقبل مهنة الطب للفتيات. ولا ينسى الأتراك حملتها، «قطرة حليب»، لمساعدة الأطفال المحرومين حليب الأم وشرحها لفوائد الإرضاع الطبيعي منذ ذلك الوقت، أو حتى ما يقال عن دورها النضالي ضمن الحركات النسوية بداية تأسيس الجمهورية».

وحول واقع دراسة الطب في تركيا اليوم، تشير الطبيبة التركية هاصة، إلى أن الوضع تبدل بالمطلق، عمّا كان عليه منذ أول افتتاح كلية عام 1827، فبلادها اليوم تحوي 65 جامعة تدرس الطب تقبل سنوياً عشرات آلاف الطلاب والطالبات، من تركيا ومعظم دول العالم، بما فيها الأوروبية، بعد وصول تصنيف جامعات تركية إلى مراكز متقدمة دولياً، مثل جامعة إسطنبول الطبية وجامعة هاجي تبيه والأناضول، وجامعات تدرس الطب باللغة الإنكليزية، وبلغت تصنيفاً دولياً متقدماً، مثل جامعتي مرمرة وجراح باشا في إسطنبول.

وبالعودة إلى الطبيبة الأولى، صفية علي التي رحلت عام 1952، بعد معاناة مع مرض السرطان، وذهابها ثانية إلى ألمانيا للعلاج، فتقول بعض المصادر التركية، إن لوضع أهلها المالي وقربهم من السلاطين، دوراً مهماً في ذهابها لألمانيا لدراسة الطب، فهي ابنة علي قيراط باشا، معاون السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني، وأمها حسنة هانم، ابنة محافظ مكة المكرمة أمين باشا، ولم تكن لتذهب إلى ألمانيا لتحقيق حلمها الذي أصرّت عليه منذ رأت معاناة جرحى حرب البلقان، لولا مساعدة نائب وزير التربية والتعليم في تلك الفترة شكري بك.

لم يكن مكان قبر الطبيبة علي معروفاً في ألمانيا، ولم يكن من اهتمام تركي بمعرفته. لكن تسليط «غوغل» الضوء عليها، دفع القنصل العام التركي في ألمانيا، شنر جبجي، إلى تفعيل الموضوع والبحث عن قبر صفية علي.

ويقول المتحدث باسم منصة دورتموند للجمعيات التركية، إمره غولش، بعد مساعي القنصل وإيجاد القبر: «جئنا إلى المقبرة مع مسؤولي المديرية، وطلبنا من المسؤولين تحديد مكان الدفن بدقة، وحددنا مكان بدايته ونهايته ووضعنا عليها نقاطاً»، مضيفاً خلال تصريحات قبل أيام، أنه طُلب من السلطات الألمانية إعادة إنشاء القبر من جديد بعد 68 عاماً من وفاة الطبيبة صفية علي، حتى يكون لائقاً بذكراها: «ما زلنا في مرحلة البداية، وقد أرسلنا اقتراحاً رسمياً للسلطات الألمانية، وننتظر الجواب منها».

ما يجدر قوله، أن تركيا خلال السنوات الأخيرة خاصة، زاد اهتمامها بأعلامها السابقين، مؤسسي الإمبراطورية أو العلماء أو حتى القادة العسكريين، لما لذلك من أهمية تكمن في ربط ذاكرة الشعوب برموز من ماضيها، أو بالارتباط وفق صياغات تاريخية وسياسية، وربما مذهبية.

باختصار

لوضع أهل صفية علي المالي وقربهم من السلاطين، دور مهم للغاية في ذهابها إلى ألمانيا من أجل تحقيق حلمها ودراسة الطب هناك

■■■

طُلب من السلطات الألمانية إعادة إنشاء القبر من جديد بعد 68 عاماً على وفاة الطبيب صفية علي، حتى يكون لائقاً بذكراها

■■■

ازداد اهتمام تركيا بأعلامها السابقين، من علماء وقادة عسكريين، لما لذلك من أهمية تكمن في ربط ذاكرة الشعوب برموز من ماضيها

وأخيراً

تشرشل في مرّاكش

معن البياري

لم يُكمل تشرشل رسمَه لوحته في مُقامه في مرّاكش، في قصة (أو نص) الكاتب المغربي، أنيس الرافعي، «الإزار الأبيض» في مجموعته التي جنّسها «دليلا حكائيا متخيّلا»، وعنونَها «أريج البستان في تصاريف العميان» (دار العين، القاهرة، 2013). كانت الفرشاة تنطلق من عقالها «طلية عذبة»، غير أن الأمر يختلط على وينستون (يكتفي أنيس باسم تشرشل هكذا)، بين الحلقة في ساحة جامع الفنا في اللوحة مع الحلقة في الساحة نفسها، إذ «تلتقي نظرتُه داخل اللوحة بنظرته خارجها». وحتى يُسعف القاص الحاذق بطل النص، الزعيم البريطاني الشهير، ورئيس وزراء بلاده إبّان الحرب العالمية الثانية، والموصوف بالأسطورة وأسد بريطانيا، لإكمال لوحته القماشية، يجعله يجول في مرّاكش، مندسّا بين الحرفيين فيها، ومتلهيا بمراقبة «الهامات المتمايلة على قصائد الملحون والأغاني المشرقية القديمة». في القصة تشرشل آخر، لا يشبه الذي زار مرّاكش ست مرات، ورآها «المدينة التي هبطت إلى الأرض من عالم الخيال»، و«أجمل الأماكن في العالم»، على ما أفصحت منقولاتٌ منسوبةٌ إليه، فقد كان هذا شغوفا بالمدينة المغربية الحمراء، يأنس إلى الإقامة في فندقها بالغ الفخامة، المأمونية (يعود إلى 1925)، والتفرّج على غروب الشمس فيها. ولم ينكتب أنه كان يأنسُ إلى ناسها، أو كانت تغشاه رغبةٌ بمعرفةٍ بهم، أو توثيق صلةٍ معهم.

لم تكتمل لوحة تشرشل في محكيّة أنيس الرافعي، أما لوحته «صومعة الكتبيّة» فقد اكتملت، وأهداها إلى روزفلت، لمّا اصطحبه إلى مرّاكش، ليريه مغيب الشمس فوق جبال الأطلس، بعد أن أنهيا مشاركتهما (مع ديغول ومحمد الخامس) في مؤتمر أنفا (فندق) في الدار البيضاء في 1943. ثم أورثها الرئيس الأميركي إلى أحد أبنائه الذي باعها، ثم بيعت اللوحة، ذات الألوان الفاتحة، غير مرّة، إلى أن اشتراها براد بيت الذي أهداها إلى زوجته (طليقته لاحقا)، أنجلينا جولي. ويوم الاثنين الماضي، باعتها النجمة السينمائية في مزادٍ في لندن. وكان متوقعا أن تُشترى بنحو 2,8 مليون يورو، إلا أنها بيعت بـ 9,7 ملايين (من اشتراها؟). وفي المزاد نفسه، بيعت لوحةٌ أخرى، من أجواء مرّاكش أيضا، وثالثة غير مرّاكشية، للمحارب وثعلب السياسة، الضابط القديم في الجيش البريطاني، رئيس الوزراء مرّتين غير متتابعتين، أعظم بريطاني في كل العصور بحسب استطلاع في العام 2002، حائز جائزة نوبل للآداب عن مذكّراته (ستة أجزاء) في 1953، الرّسام الذي أنجز نحو 530 لوحة، المحب للسلطة، واسع الثقافة. وإذا أردنا الإفاضة عن هذا الرجل المقيم في ذاكرة القرن العشرين واحدا من صنّاع أحداثٍ كبرى فيه، هو مدخّن السيجار الشره، والمفرط في شرب الكحول، والخطيب البليغ الذي وصفه مذيع أميركي بأنه جنّد اللغة الإنكليزية، وأرسلها إلى ساحات المعارك مع جيوش هتلر وموسوليني. أما الأهم الذي يحسُن أن نعرفه جيدا عن تشرشل، الكاتب والمؤرّخ (له كتابٌ عن المهدية في السودان)، فهو أنه كان شديد الحماس للصهيونية، ودافع بشدة عن وعد بلفور، لمّا كان وزيرا في عشرينيات القرن الماضي. ثم ناصر الهجرات اليهودية إلى فلسطين، ونعت رافضيها العرب بأنهم عنصريون، فيما أرشيفُه يضجّ بأسوأ النعوت العنصرية، ضد العرب «الذين يأكلون روث الجمال»، وضد الهنود «الحيوانات». وعلى ما كشفت وثائق، فإنه أراد استخدام غاز الخردل لقمع احتجاجات عشائرٍ عربيةٍ وكردية في العراق في 1919. أما أن علاقةً غراميةً سرّية «آثمة» أقامها في الثلاثينيات مع سيدةٍ متزوّجة، على ما «كشف» فيلم وثائقي، فذلك ما لا ندسّ أنوفَنا فيه.

> لوحات تشرشل المراكشية مشهدية، مغتبطة بالمكان، بالنور الذي فيه، كما الذي في اللوحة التي باعتها أنجلينا جولي

لا تفيد النّتف التي نقلت عن تشرشل بشأن مرّاكش بغير كلفه بطبيعتها ووداعة شمسها، وقد سمّاها محبوبته، و«باريس الصحراء». عندما يكتُب في 1936 أن القادم إلى واحات النخيل، المتصلة بالصحراء، سينعم بأشعة الشمس إلى ما لا نهاية، و«بمشهد جبال الأطلس الشامخة المكسوّة بالثلوج»، فكأنه يلوذ بمراكش من برد لندن ونقصان الشمس في أوروبا. لا تحضر مدينة المرابطين والموحدين في أفهامه مدينة انفتاح حضاري وإنساني وثقافي راهن، كما رآها كتّابٌ وفنانون عديدون (أبرزهم الإسباني غويتسولو الذي أقام فيها). لا يحضر المراكشيون إلا بعيدين. وليس في وسع صاحب هذه الكلمات أن يُفتي بشأن لوحات الزعيم البريطاني المرّاكشية، لكن الظاهر أنها مشهدية، مغتبطة بالمكان، بالنور الذي فيه، كما الذي في لوحة «الكتبية» التي باعتها أنجلينا جولي بأكثر من 11 مليون دولار.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**